



البوذية.. حكم ووصايا

❀
عيد الدرويش

لا تختلف كثيراً رؤية الفلسفة البوذية عن بقية الفلسفة الهندوسية والتاوية وغيرها في الشرق، بالنسبة لرؤيتها للمعاناة الإنسانية، فتطرقت إلى مسائل ثنائية في الحياة والموت، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة، ومرتبة كل من أجاد في تطبيق هذه المبادئ، والمغالاة فيها أصبح تصوفاً والإيمان المطلق وصولاً إلى الحقيقة الكلية، وهي حقيقة الوجود والتي تتناوب فيها المعرفة بين فلسفة وأخرى، ولكنها تتوحد في مسارات متعددة، وتبقى اختلافاتها في أجزاء تفصيلية، ولكن الوجود الإنساني بعيد عن الكمال الخالص والمطلق، ومن جمع المال، أو حاز على الجاه يتعين عليه التسليم بقدر كاف من التعاسة والبؤس والشقاء، والمعتنقون لهذه الفلسفة يدركون من وراء ذلك بأن الحياة ليست كاملة.

هذا ما توصل إليه (غوتا ماسد هارتا بوذا) الذي ولد في عام ٥٦٠ق.م في سفوح جبال الهيمالايا، وتوفي في عام ٤٨٥ق.م فقد أدرك بأن مواجهة المشكلة، ومعايشتها خير وسيلة من النظر إليها من بعيد، فهو الرجل الثري الذي أصبح ملكاً على البلاد، وعاش في برج عاجي، وغنى فاحش، وإمبراطوراً على كل بلاد الهند، فقد كان أبوه زعيماً لقبيلة (ساكيا) وعندما كان عمره ١٩عاماً تزوج غوتاما أميرة من الجوار، ولم يهنأ له العيش في حياته، واكتشف أنه غير سعيد في هذه الحياة.

❀ كاتب وباحث في التراث الإنساني.

لقد كثرت الأساطير حول ولادة بوذا كلما تقدم الزمن، وليس جديداً عندما نرى هذه الطقوس الفلسفية للعقيدة البوذية، التي تعددت آلهتها وتعددت مذاهبها، وما بينهما نشأت العديد من الأساطير والخرافات والخوارق، التي نسجت حول الآلهة وحول الأشخاص الذين ارتضوا لأنفسهم عبادتها، وهذا ما توصل إليه العقل البشري من خلال ركضه خلف الحقيقة.

إن هذه الكثرة ستفقد الشيء الكثير بالنسبة للمصداقية لهذه الفلسفة أو تلك، وقد تصل في بعض الأحيان إلى حالات التناقض، ولكن يعزى ذلك لكثرة الديانات والآلهة وتعددها وكثرة الأساطير وتنوعها.

فأراد بوذا أن يهجر الحياة التي يعيشها، وفي نهاية العقد الثالث من حياته بعد أن أنجبت زوجته طفلاً، وشعر بأن الوقت قد حان لتحقيق رغبة في نفسه، خلع ملابسه الثمينة، وارتدى ثوباً أصفر خشناً اقتداء بناسك قد رآه يوماً من الأيام، وهام على وجهه لمدة ست سنوات في البراري، وقد كان يجول في ذاته صراع داخلي للبحث عن الحقيقة، واستمد هذه الطريقة من الهندوس، وطريقة النسك الصارم على غرار الجاينيين، وهي طريقة في النسك والعبادة، والتأمل والتصوف، وهي أسبق من (غوتاما البوذية) وكان مؤسس الجاينية (ماهافيرا) وأيضاً وُلد من عائلة الأشراف، وكذلك فقد ثار على الوضع الاجتماعي، وترك زوجته التي أنجبت طفلاً، وترهب ثم أسس نظاماً نسكياً جمع النساء والرجال، وزالت الفوارق الطبقية بينهما، وأن (غوتاما وماهافيرا) كانا غير مقبولين لأنهما رفضا قداسة الفيدا.

وعندما قصد بوذا مكاناً يدعى بودغايا، وجلس تحت شجرة صارت تدعى شجرة المعرفة، أو شجرة البو (bo) وهذه المرحلة تعتبر من المراحل المهمة التي قيضت لتؤثر على حياة الملايين من بعده.

هذا الصراع الذي لازمه طوال الفترة ليكتشف في نفسه أسئلة كثيرة كانت تلجلج صدره، عله يلقى بعض الأجوبة من خلال هذه المعاناة التي رغب بها ليتحرر من تلك المعاناة، ومن كل توق جسدي، وأيقن بأن حالة الصفاء العقلي والفكري قد حصل عليها، ونور المعرفة ظهر لديه، وأن الولادة (حالة الولادة) لن تتكرر، ولكن الموت سيواجهه بعد أسئلة أثارت حفيظته عندما رأى عجوزاً منحني الظهر، ومتعثراً في مشيته، وحاقت به الأوجاع وسأل سائقه، فأبلغه بأنه عجوز، ولكنه لم يتفهم الكلمة، ولم يكن له خبرة بالشيخوخة مستوضحاً من السائق مرة أخرى ليلقى الإجابة: نحن أيضاً معرَّضون للشيخوخة، وتلتها مواقف كثيرة منها أن

رجلاً مريضاً استبد به المرض، فجرى حوار مع سائقه أيضاً، فكانت النتيجة أنه معرّض للمرض كذلك.

هذه الحوادث والمشاهد التي شاهدها بأم عينيه أعادته إلى قصره، وعكف على التأمل، وبقي الموقف الذي خلد في ذاكرته ذلك الرجل الذي رآه عندما كان يتجول بعربته، فكان حليق الرأس، ويرتدي ثوباً أصفرَ، ويبدو قانعاً مع نفسه في حالة تأمل ليدنو إليه ويسأله: ما الذي فعلته أيها المعلم؟ حتى غدا رأسك مختلفاً عن رؤوس الآخرين، وملابسك مغايرة لملابسهم.

ويجيب الناسك إنني يا مولاي شخص مضى قدماً.. ويتساءل ما الذي يعنيه هذا المعلم -إنه يعني أن المرء أصبح ضليعاً بالحياة الدينية والفلسفية، وضليعاً بالحياة الطيبة، وضليعاً بالسلوك الجدير بالتقدير، وضليعاً بالشفقة على الكائنات الحية.

بعد أن رأى مجموعة من القضايا والأمور بدأ يفكر ويتأمل في أمور الكون، ودرس الكتب المقدسة، وهو الإنسان الثري يعيش منعما بينما العديد من الفقراء يعيشون في تعاسة ومنبوذين، وخرج هائماً على وجهه يلبس الثوب الأصفر الخشن، وأصبح على هيئة راهب يلبس ثياباً بالية وبهذا أصبح ينتمي إلى أولئك الفقراء والكثير منهم تركوا بيوتهم، وسكنوا الجبال يشغلهم التفكير في العقيدة والوصول إلى الحقيقة، التي لا زمت ذاكرة الكثير منهم وعلى رأسهم بوذا.

فاكتشف غوتاما بعد معاناته الشديدة أن جسمه أصبح خاملاً لا يقدر على الحركة، وخلص إلى أنه لا المغالاة في الملذات، ولا التقشف البالغ، بقادر أن يصل إلى الحقيقة، فاختار وتبنى طريقاً وسطاً بينهما، حيث استعان بضبط النفس والتطهر، فأصبح غوتاما المستنير (بوذا) وعاش النرفانا (السعادة) عن طريق البراهما (الإله براهما) الذين سعوا إلى طريق السلام، وبهذا تتوجه الديانة البوذية إلى النفس البشرية للوصول إلى السلام وليس للأنانية، ويتطلب من معتنقها أن يكون كابحاً للعواطف، وعديم التأثّر بالمؤثرات الجسدية كاللذة والألم، فلم تكن هذه التعاليم من وحي يتلقاه البوذي، وإنَّما هي مجموعة الآراء، والعقائد في إطار منطقي استدل عليها الإنسان بعقله وعواطفه.

وعندما حكّم الاثنين ورجح العقل، وثبط الغرائز والميول، وأهواء النفس بطرفيها النقيضين (اللذة والألم) اكتشف أن هذه الملذات لا تساوي شيئاً أمام العقل، وهذا ما ارتكزت عليه الفلسفة البوذية ، وكديانة وضعية دان بها ملايين البشر (ونحن نجد هنا تطبيقاً للمبدأ الذي تميزت به البوذية ألا وهو «الطريق الوسط» وهو يعني الطريق

الذي يقع بين حياة الحس والمتعة المسرفة، وبين حياة الزهد والتقشف المتطرفة، ولقد رفض بوذا نفسه هاتين الحياتين المتطرفتين في مسار حياته وهو يدنو من البوذية والظاهر أن خلق الظروف المثالية لتحقيق حياة بوذية بأكبر عدد ممكن من المواطنين)[١] وكان يجلس مع رهبان آخرين دخل عليهم ملك أحد المدن، وأعجب بحديثه وقال له الملك: «إن كلماتك مليئة بالحكمة أيها الراهب، ألا تأتي معي إلى القصر لتصبح كبيراً للمستشارين–فقال له بوذا: لو أن ما أبحث عنه هو المجد والثراء، لأصبحت ملكاً على مملكة في حوض الجنجز، ولكن بحثي هو عن أشياء لا يمكن للمجد أو الثراء أن يشتريها، إني أبحث عن المعرفة الحقيقية للحياة».[٢]

إن ما توصل إليه بوذا من خلال انقطاعه وتأمله وتفكيره، في البحث عن الحقيقة، والحكمة التي صاغها لأصحابه، إذ يقول (أخيراً وجدت مفتاح الحكمة إنه أوَّل قانون للحياة.. من الخير يجب أن يأتي الخير.. من الشر يجب أن يأتي الشر)[٣] وهذا ما ارتكزت عليه الفلسفة البوذية.

وتذكر الكتب البوذية المقدسة (كل ما نحن عليه هو نتيجة تفكيرنا، وأساسه مبني على تفكيرنا، كما أن قوامه هو تفكيرنا).[٤]

إن الطقوس التي كان يقيمها الرهبان البوذيون، لإماتة الشهوات والملذات الحياتية متعددة، فقد كانوا يجلسون على المسامير لمدة طويلة والحجارة الخشنة وأكوام الزجاج المكسر، وإن معاناة بوذا في الجبال وجلوسه تحت شجرة متأملاً ومفكراً، ليكتشف الحقيقة التي شغلته، وجعلها ديدنه، وأنها ليست بعيدة عن نفسه، ولا تتحقق بالعذاب والشقاء والزهد، وكذلك لا تتحقق بالغنى والرفاهية، التي كان قد عاشها مع أهله وذويه، وأن الانسان وحده هو الذي يستطيع أن يفعل الخير، وذاته أيضاً يستطيع أن يفعل الشر.

وكذلك حدثت حوارات مع الرهبان، بأن هذه الآراء والأفكار هي مدونة في الكتب المقدسة «الفيدا» فإن بوذا كان يجيب بإيضاح أن هذا صحيح، ولكن يضرب مثالاً فيقول: بأن الماء ينحدر من الشلال، وأن النار حارقة، وأن عبادتنا وتقديم القرابين لهذه الآلهة الصماء، لا تجعل الماء يصعد على التلال، ولا النار تصبح باردة، وبهذا يعتبر بوذا مجدداً في الفكر، وأنه أوَّل من تجاوز على المقدس في معتقدهم وهي تعاليم الفيدا(كل مانحن عليه هو نتيجة تفكيرنا، وأساسه مبني على تفكيرنا، كما أن قوامه هو تفكيرنا).[٥]

وما نجده من خلال الوصايا العشر (لاتقتل- لا تسرق- لاتزن- لا تكذب -

لا تتناول المخدر، ولا السم- كل باعتدال، ولا تتناول طعاماً بعد الظهيرة - لاتحضر حفلات الرقص، والغناء، والتمثيل - لا تستعمل الأسرّة المرتفعة، أو العريضة - لا تقبل الذهب والفضة).

وهذه الوصايا تسمى أيضاً وصايا السانغا، وهي الطريق الوسط للناسك، وإذا انحرف عنها الناسك وجب الاعتراف بخطيئته في اجتماع عام كما أنها قسمت هذه الوصايا العشر إلى قسمين منها الخمس الأولى للناس العاديين من نساء ورجال، وأمَّا العشر فهي للرهبان، والنسّاك.

ومن المعروف أن هذه العقائد لم تهتم بها العامة كثيراً، وكانت تقتصر على دائرة النسّاك، والرهبان وقد اهتمت بشخصه، والأخبار المنسوجة حول حياته، وأفضل ما رأته في عطفه على الناس، فمن هنا تتحول المبادئ، والعقائد إلى دين عندما يتم تأله مؤسسي هذه الأفكار، والعقائد، ولكن أدرك بوذا في تلك الفترة بأنه بوذا لنفسه، أمَّا أنه بوذا للآخرين، فقرر أن يعود ليعلم بعضاً ممّن حوله لينقل ما تعلمه خلال تلك الفترة التي قضاها، فبحث عن خمسة قد تركهم، ولكن عندما عاد إليهم ظنوا أنه قد هجر النسك، وعاد إلى حياة الترف واللذة، فوجدهم في مكان يسمى حديقة الأيائل في بينارس، ودار حوار لمدة أيام أجابهم بوذا بكلمات فكانت (الموعظة في حديقة الأيائل) وأشهر ما قاله (هناك أمران متطرفان يجدر بمن اعتزل العالم اجتنابهما: تكريس الحياة للشهوات، وممارسة أفعال الإماتة، أما الأوَّل فهو منحط، ولا يعطي نتائج حسنة، وأمَّا الآخر فهو أليم وغير نبيل، ولا يعطي نتائج أفضل، وبابتعاده عن هذين الخطين المتطرفين يصل طالب الحقيقة إلى الطريق الوسط الذي يفضي به إلى المعرفة والحكمة والسلام والتنوّر والفناء).(٦)

فاهتدى النساك الخمسة، وأسست الرهبنة البوذية الأولى (السانغا) في شمال الهند، وارتفع العدد بعد ذلك إلى الستين، ومعظمهم من طبقة الأشراف التي ينتمي إليها.

وفي نهاية حياته لم يبق حوله سوى أحد المخلصين له رفيقه الأقرب (أنا ندا) وتوفي في العام ٤٨٥ق.م.

وقد ترك بوذا تعاليم وحكماً ووصايا هامة في حياة الشعوب الهندية والصينية واليابانية، وتشكلت منها فلسفة، ودين اعتنقته تلك الشعوب لأكثر من ألف عام، ومن بين تلك التعاليم.

الحقائق النبيلة الأربع(٧): هي التي تفضي إلى الحكمة، وتصل بالفرد إلى السعادة والمعرفة والنرفانا.

- الحقيقة الأولى: تتلخص تلك الحقيقة

أيها الرهبان في أنّها الحقيقة النبيلة للمعاناة، فالميلاد معاناة، والملل معاناة والمرض معاناة، والموت معاناة، ووجود الأشياء التي نكرهها معاناة، والانفصال عن الأشياء التي نحبها معاناة، وعدم الحصول على ما نرغب فيه معاناة، وباختصار، فإن المجموعات الخمس التي تنبع من التملك مؤلمة.

ويؤكد بوذا من خلال هذه المعاناة بأن ما يمكن أن يستلذ به أحدهم، قد تكون معاناة أخرى، والآلام للآخرين تزعزع شعور المرء بالقناعة والرضا.

والشكل الآخر من خلال المعاناة بأن اللذة ليست مستمرة، ولكن ذلك يدفع إلى تقوية الدافع كلما زادت الملذات، وكلما زاد التشبث بالملذات زادت المعاناة.

إنَّ الاستمرار بالملذات قد لا يوصل إلى السعادة بحكم كونها سطحية، وعناصرها تؤدي إلى التعاسة ويجب عليه ألا يبتهج بالتكريم الدنيوي، وإنَّما عليه أن يسير نحو الانقطاع عنه.

- الحقيقة الثانية: وتضرب جذورها في تلك الرغبة الملحة (الشهوة) التي تجدد الصيرورة، أو الميلاد من جديد، وتصحبها اللذة الحسية، وتسعى إلى الإشباع في التو، واللحظة (هنا، الآن) أي التوق إلى الملذات، والتوق إلى الصيرورة، والتوق إلى اللاصيرورة.

وحول هذه الحقيقة يقول بوذا بأن المعاناة تمتد إلى الرغبة الملحة، أو الشهوة عندما تتوق المرء رغبة في الحصول عليها، ولا يستطيع حيازتها كالفقير الذي لديه رغبة شديدة لجمع المال، فهذه معاناة، وكذلك المريض عنده الرغبة الشديدة بالصحة، والرغبة في الخلود عند حتمية الموت، وهذه الثنائيات تؤدي إلى المعاناة.

وكذلك يتطرق بوذا من خلال ذلك إلى أن هناك حقائق موضوعية، ولا يقتصر ذلك على الإنسان، والنفس الإنسانية التي تحول فيها الرغبة والدافع، والحصول عليها، وما بينهما تحصل المعاناة، فقد يرى غير ذلك في الأشجار والأحجار، التي لا توجد فيها نفس، فإذا انشطر حجر إلى شطرين، أو انكسرت شجرة، فهذه ليست لها نفوس.

- الحقيقة الثالثة: «وهذه أيها الرهبان هي الحقيقة النبيلة الثالثة المتعلقة بتوقف المعاناة إنها حقاً التجرد من الانفعال، التوقف دونما أثر لهذا التوق ذاته تنحية هذه الرغبة الملحة، والتخلي عنها والتحرر منها وعدم التعلق بها».

فيتطرق بوذا في هذه الحقيقة إلى أن المعاناة يمكن القضاء عليها بتحليل أسباب المعاناة، فإذا كان التوق الأناني هو سبب المعاناة، فإن توقف المعاناة يكمن في انقطاع ذلك التوق، وعند الانطفاء، أو

الإخماد تجتث من جذورها، وهذا ما يدفع بوذا كونه الطبيب البارع عند تحليل المرض وتشخيصه، وعندها تعرف ما هو مطلوب لتحقيق الشفاء.

- الحقيقة الرابعة: وهي الطريق المفضي إلى وقف المعاناة، فنجده يقول فيها «إنَّها الطريق ذو الشعاب الثماني أعني أنَّها سلامة الرأي، وسلامة النية، وسلامة القول، وسلامة الفعل، وسلامة العيش، وسلامة الجهد، وسلامة ما نعنى به، وسلامة التركيز ويتحقق ذلك من خلال:

- الإيمان الصحيح: إن الصدق هو دليل الإنسان.

- العزم الصحيح: أن يكون الإنسان دائم الهدوء في سائر الأوقات وأن لا يؤذي أي مخلوق.

- القول الصحيح: أن لا يكذب أبداً ولا يفتري على أحد، وأن لا يكون فظاً أو شرساً.

- السلوك الصحيح: أن لا يسرق ولا يقتل، وأن لا يفعل ما يندم عليه، أو يخجل منه.

- العمل الصحيح: أن لا يختار عملاً رديئاً.

- الجهد الصحيح: أن يجاهد من أجل الخير ويتجنب الشر.

- التفكير الصحيح: بالحقائق النبيلة في هدوء وحسن تمييز، والتركيز الصحيح، سيؤدي إلى طريق السلام التام.

من خلال ما تقدم يتبين أن السلوك في الحياة، والتي تعمل المبادئ الثمانية التي تهدف إلى تحقيق حياة مستقيمة.

الدمايادا[8](أقوال وقصص الدمايادا):

وهي مجموعة الكتب البوذية المقدسة، أو سلال الحكمة (تيبتياكا) وهي أضخم ما ورد من التراث الفلسفي والمعرفي.

فالسلة الأولى والثالثة (التيبتياكا) تعطي وصفاً دقيقاً لقواعد النسك والرهبنة، وتوضح معالم كل قاعدة بشتى الشروح، والتفاسير وفقاً للعقيدة البوذية، أما السلة الثانية (ستابيتاكا) فهي مجموعة هائلة من المواعظ والأحاديث، تعزى إلى بوذا منها ٥٥٠ قصة من قصص الولادة (الجاتاكاس) وقصص الأمثال البوذية (الدمايادا) كتب شعر كلها، وينتظم في ذلك الكتاب ٤٢٣ موشحاً يتضمن كل واحد منها فرضاً من الفرائض أو قاعدة أو ناموساً.

وجدت تعاليم بوذا تربة خصبة في نهر الغانج بعد وفاته، وازداد عدد الرهبان، وانضمّ إليهم العديد من النساك من أبناء المجتمع، والطبقات الحاكمة كافة، وتقول الرواية حوالى ٥٠٠ ناسك أنشدوا ما في السلال الثلاث لتعاليم بوذا.

ولكن بعد مضي قرن من الزمن قد

شـاب هذه التعاليـم من التعديـل كتناول وجبة الأكل بعد منتصـف النهار، والسماح للبعض للنـوم على أسرة مريحـة، واقتناء الذهب والفضة، وتناول المشروبات المخمرة، وبهذا أصبح انشـقاقاً عن البوذية القديمة (الأصـوليين) أمّا المنشقون اكتسبت تسمية جديدة (هينايانا).

ويظل مبـدأ الرهبنة التي انتشرت فيها الهينايانـا من جديد، والتي تعتمد بشـكل أساسـي تعاليم بوذا ولباسهم الأصفر، وقد حلقوا رؤوسهم كما كان يفعل غوتاما (بوذا) والذيـن يهدفـون إلى الخلاص الفردي، ويعادل القداسة.

ومن ميزات التأمل النسـكي الصـامت المتبـع في جميع أديـرة الهينايانا، وتنطوي أن هنـاك اعتقـاداً أن الهينايانا تنظر إلى أن هناك بوذا في مرحلة التكوين اسـمه (ما تريا) والذي ينتظر الوقت الملائم ليعود إلى الأرض، وسـتكون حياته مثل حياة غوتاما، وتدل الدراسات التاريخية بأنه لم تكن هناك تماثيل لبـوذا إلى أن جاء الإغريق إلى ولاية البنجاب شـمال غرب الهند، ووضـعوا له تماثيل تمجـده وذلك خلال القرنين الثاني، والأول قبل الميـلاد، وكانوا يتوقون إلى بناء أبراج تتدرج حتى تنتهي إلى قبة مسننة، وهي دور للعبادة، وتعتبر الهينايانا هي الوسـيلة الصـغرى، ولكن بدأت تظهر مدرسة أخرى هي الماهايانا، وهي الوسيلة الكبرى في حين كانت مدرسة الماهايانا تطلق على الهينايانا (ثيرافادا) تسمية أي إن (الهينايانا) الوسيلة الصغرى استخفافاً.

وكذلك سبقت هذه المرحلة (بوديساتفا) والذين ينظـرون إلى بوذا بأنـه كائن إلهي وضـع للناسـ من أجـل أن يخلصـهم من الآثـام، وهذا الكائـن الإلهي قد دخل رحم امرأة، وهي نائمة في قصر الهيملايا، وهذه إحدى الروايات التي صيغت ضمن الفلسفة البوذية، كما أن هنـاك روايات أخرى تدور حول السـياق نفسه كلما تقدم الزمن، وهذا ما ينطبق على بعض الفلسفات الأخرى، إلا أنها بقيت تنشد التفاؤل:

– البغضـاء لا تتلاشـى بالبغضاء أبداً إنما تتلاشى البغضاء بالحب هذا الدستور الخالد (داما يادا).

– من يرغب في ارتداء جبة الراهب قبل أن يطهر نفسه من الخطايا، أولاً غير خليق بذلك الرداء.

– الراهب الذي يبتهج بالتفكير، ويخشى الطيش قريب من الخلود.

– المنتصـر من يقهر نفسـه، وليس من ينتصر في ألف موقعة على ألف محارب.

– من يعمر مئـة عام من دون أن يدرك الناموسـ الأسـمى خير لـه أن يعيش يوماً واحداً، وهو يدرك ذلك الناموس.

- حتى الرجل الصالح يعاني أيام نحس ما دامت الصالحات لا تثمر، أما إذا نضجت أعماله الصالحة، فعندئذ ينعم بالخير.

- لا عاصم للإنسان من الموت حتى لو اتخذ السماء أو البحر، أو كهوف الجبال، أو أية بقعة ملجأ له.

- من تذوق حلاوة الوحدة، والهدوء يتحرر من الخوف والخطايا.

- الناسك المتراضي لا يصنع أكثر من زيادة نثر غبار الأهواء.

- الذين يعرفون الحلال حلالاً والحرام حراماً، هم الذين يتمسكون بالعقيدة الصحيحة، ويسلكون طريق الصلاح.

- حالة الأم في هذه الدنيا مبهجة، وحالة الأب مبهجة، وحالة الناسك مبهجة.

- ضبط العين خير، والخير في ضبط الأذن، وضبط الأذن خير، والخير في ضبط اللسان، وضبط البدن خير، وأكثر منه خيراً ضبط العقل، والضبط في كل شيء خير، إن الراهب الذي يضبط نفسه عن كل شيء يتحرر من الألم.

- من يسيطر على يده فقد سيطر على قدمه، ومن يسيطر على كلامه، هو من يبتهج في قلبه، والهادئ والمنفرد، والقنوع هو الذي يدعى بالراهب.

- الراهب الذي يسيطر على فمه ويعلم، معنى الشريعة يكون كلامه حلواً.

- يا أيها الراهب لا تبالغ في تقدير ما أوتيت، ولا تحسدن قط أحداً، فالراهب الحسود لن يهدأ له بال.

- من لا يحزن على ما فات، فهو ناسك حقاً.

- أيها الناسك أيقظ نفسك بنفسك، وأمتحن نفسك بنفسك، وهكذا بمراقبة نفسك وحراستها تعيش سعيداً.

لقد كانت التاوية والبوذية عقيدتين متناقضتين في عدد من الجوانب الأساسية، فالتاوية تسعى لإدامة الشخصية الإنسانية في حين تنكر البوذية وجودها ذاته، فلا يوجد عند البوذيين ما نسميه (نفساً، أو أنا) والتاوية تتطلع إلى خلود الجسد المادي فيما تنظر البوذية إلى الجسم البشري على نحو ما تنظر إلى جميع الأشياء المخلوقة على أنه عابر وزائل).

غير أن هذه الخلافات العقائدية كانت في البداية غامضة ومبهمة في أعين الصينيين، لقد كانت للبوذية في ممارستها الدينية أشياء مشابهة في ظاهرها للتاوية، فهي تمارس عبادة شعبية بغير قرابين وتضفي أهمية على تأمل وممارسة اليوجا وعلى الصوم والتقشف وقد ظل الاعتقاد شائعاً في الصين لقرون عدّة بأن (لاتسو) أب التاوية الذي علم بوذا، وأن البوذية هي ببساطة صورة أجنبية من التاوية (وهناك

طريق واحد فحسب، للفرار من هذه المعاناة، وهو الطريق الذي اكتشفه بوذا، والذي يؤدي إلى النرفانا).

- (إني أجد ملاذي في بوذا إنني أجد ملاذي في الشريعة، إنني أجد ملاذي في جماعة الرهبان.

- للبوذية كالتاوية نمطان من الحياة الدينية حياة الرهبان وحياة العامة، وبينما كان الرهبان وأهل الفكر والمثقفون في الديانتين يجادلون في الخلافات العقائدية، ويؤثرون بمجادلاتهم في الحياة العقلية الصينية بصفة عامة.

لقد ظهر الكثير من الفلسفات في الهند، حتى غدت أدياناً يعتنقها الكثيرون، فتعددت الطقوس الدينية فيها، فأخذت في تقديس كثير من الأشياء، والحيوانات حتى كثر فيها الزهاد، والقديسون أكثر من أي بقعة من بقاع الأرض، وكانت كلها تصل في نهاية المطاف إلى البراهما، فلا بدَّ للسالك في هذا الطريق أن يتّبع سبل أسلافه التي وضعوها. وحتى في قضايا الزواج المتشددة وإن هناك قسما على صيانته لعفته قبل زواجه، وأن يلتزم بذلك طوال حياته، وأن يكون خدوماً وأميناً لشيخه، ومعلمه الذي تلقى منه هذه التعاليم، وهذه الدروس وألا يتأخر زواجه عن الثامنة عشرة من عمره لكي تبدأ دورة الحياة الثانية البرهمية للتناسل من أجل أن يكون له أولاد في خدمة أسلافه، ومن يرغب في القداسة، والزهد مع زوجته يعيش في الغابات، وأن يقاوم الشح ومقاومة الملذات الشهوانية، وراضٍ عن ذلك وتقتصر عيشته مع زوجته فقط على إنجاب الأطفال.

وإذا أراد الزاهد أن يرقى إلى أعلى درجات القداسة والتصوف، فلا بد أن يترك حتى زوجته، ويستغني عن أملاكه وأمواله، ولا يملك سوى جلد وعلٍ لكي يغطي جسده، وعكازة يتوكأ عليها، وقرعة ماء لظمئه، وعليه أن يلطخ جسده بالرماد كل يوم، وأن يعيش معتمداً على صدقات المحسنين، وأن ينظر إلى القاعدة البرهمية على أنّهم سواسية، وأن ينظر إلى الأمور بشكل هادئ بعيداً عن الاضطراب وصولاً إلى الحكمة الروحانية التي تمكنه من الاتحاد مع عالم الربوبية، وعالم الربوبية هي التي تفصل بين الإنسان وشهواته، وملذاته بعد أن يمر بثلاثة طرق، ومراحل (المرحلة الأولى: طريق التأمل- المرحلة الثانية: طريق العمل - المرحلة الثالثة: طريق الحب).

- وهذا ما أدى إلى صياغة قانون بوذي مكتوب، ولكنه يضم بعض المتناقضات، وفيها المعلم البوذي نجاسينا يقول: «إن الدين لا ينبغي أن يتخذ مجرد وسيلة فرار يلوذ بها المعذبون، بل يجب أن يكون سعي الزاهد حتى مرحلة القداسة، والحكمة

مـــن دون أن يزعـــم وجود جنـــة، أو إله لأن هـــذا القديس يؤكد لنا أنـــه لا وجود لجنةٍ، أو إله». [٩]

– فـكان هنـاك مـن الملاحـدة الذين يشـككون في حقيقـة الأرواح، ويحتقـرون الخلود، ومـن هذه الملاحـم (المهابها راتا) وتضـرب مثـلاً أن «ابـن آوى الـذي يعلل وجوده، ووجود نوعه بقوله إنه كان في حياته الماضـية باحثاً عقلياً، وناقداً لكتب الفيدا مهيناً للكهنة معارضـاً لهم كافراً بكل شيء شكاكاً في كل شيء». [١٠]

– (فالبوذيـة رغم ما فيهـا من عناصر الشـمم هي كالرواقية- فلسفة للعبيد، ولا يغير الموقف أن ينطق بهـا أمير لأنها ترمي إلى وجوب الزهد في كل شهوة، وفي كل كفاح حتـى، ولو كانت الشـهوة، وكان الكفاح من أجـل الحرية الفرديـة، أو الحرية القومية مثلهـا الأعلى هـو حالة جمـود لا يعرف الرغبات). [١١]

– وبهـذا صـورت الديانـة الهنديـة الحيـاة بأنها لا مفرّ منهـا في حين لم تراع بعض المسـائل الأخلاقية، وتمسكت بعادات وحشية مثل حرق الأرملة عند وفاة زوجها، واعتبرت أن الشـكليات فيها كل شي تبحث عنه الهندوسـية، وأن جواهر الأمور لاشيء لها من الذكر.

– إن كل مـا تواتر إلينا مـن أخبار عن تراث، وحضارة الهند شيء قليل أمام أمة عظيمـة في تراثها، وأمجادهـا ذلك التراث الذي يشـوبه الغموض حيناً، ويفصـح عن حالة تطور هائل لإنتـاج العقل البشري، ولم يكن مسـاوياً للعقل الإغريقي، بل يفوقه في كثير من المسائل الفكرية والأخلاقية، وكانت بحق مـن كبريـات الفلسـفات في الشرق، فضلاً عن أن الفلسـفة الهندية هي أسبق من الفلسفة الإغريقية.

– وأمام هذا التعقيد وشـح المصـادر، والمعارف لتلك الفلسـفة، فإننا لن نستطيع أن ندلي بأقوالنا حول تلك المسـائل بشـكل نهائي ولاسيما مسـائل العقيدة، والدين في حين صعد الغرب بحضارتهم المادية المفرطة تحصـد نتائجها في تلك الأيام، وقد خسروا علومهـم ومعتقداتهم، فهـل تبقى الحقيقة التاريخيـة القائلـة بأن الغـرب يبحث عن نفسه؟

ومـا نراه يتخبـط في سياسـاته، أم في صراعاته، ولن تكون النتيجة إلا على شاكلة من الفوضوية والخراب، وبالمقابل هل أجزلت العطاء تلك المبادئ الصوفية التي دعت إلى نبذ كل ما هو مادي، أو ما يوصـل إلى رغبة أو شهوة، وهذه ليست عند عقيدة الهندوس، أو الزرادشتيين أو البوذيين، فحسب بل لدى الأديان السـماوية ومتصوفيها ونساكها، أم

أن سـبيل التصوف هذا سيكون هو الأنجع؟ والطريق الصـحيح في التعامل مع الأقران، ومع كل الكائنات.

- وإذا ما استعرضنا كل الزهاد وكل الفلسفات، وكل المتصوفة الذين وقفوا على النقيض من حافة المادية، في حين تفرد بها البعض تاركين كل القيم الروحية والأخلاقية، وأصبح تصوفهم بالمادة دون الروح، أما الصوفي تصوفه كان على حساب المادة.

ألم يكن ذلك الإنسان باستطاعته أن يحمل هذه المتناقضات؟ لكي يكتمل عمله، إن هذه هي الوسطية بعد تجارب وفلسفات، وحضارات كانت النتيجة الوسطية والاعتدال فيما بينها، ففي المغالاة في الروح يكمن الخير والشر، وفي المغالاة في المادة تكمن طامة الخير والشر.

الحواشي

١- المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص١٦١.
٢- قصة الديانات، ص١١٨.
٣- قصة الديانات، سليمان مظهر، ص١٢٢.
٤- حكمة الأديان الحية، ص١٩.
٥- حكمة الأديان الحية، ص١٩.
٦- حكمة الأديان الحية، ص٥٥.
٧- الفكر الشرقي القديم، عالم المعرفة، ص١٩٢.
٨- حكمة الأديان الحية، ص١٩.
٩- قصة الحضارة، ج٣-٤، ص٢٣٠.
١٠- قصة الحضارة، ج٣-٤، ص٢٣٠.
١١- قصة الحضارة، ج٣-٤، ص٢٣٢.



المراجع

- قصة الحضارة- وول ديورانت - ترجمة: د.زكي نجيب محمود- جامعة الدول العربية- الطبعة الخامسة.
- حكمة الأديان الحية- تأليف: جوزيف كاير- ترجمة المحامي حسين الكيلاني- مراجعة: الأستاذ محمود الملاح - دار الحياة - بيروت ١٩٦٤م.
- الفكر الشرقي القديم- تألي ف: جون كولر- ترجمة: كامل يوسف حسين- مراجعة:د.إمام عبد الفتاح إمام- عالم المعرفة ١٩٩٥م.
- قصة الديانات- سليمان مظهر - مكتبة مدبولي - القاهرة: ٢٠٠٢م.
- المعتقدات الدينية عند الشعوب - تأليف: جيفري بارندر- ترجمة: د.عبد الفتاح إمام- مراجعة: عبد الغفار مكاوي- الطبعة الثانية- مكتبة مدبولي - القاهرة ١٩٩٦م.